

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

يشتمل هذا الكتاب على موضوعين، الأول دراسة لأربعة من شعراء مصر في أواخر العصر الفاطمي، أولهم حفيد لابن هانئ الشاعر الأندلسي الشيعي الكبير شاعر المعز بالله مؤسس الدولة الفاطمية. ويتفق في اسمه مع جده، ومُيِّزَ منه بإضافة لقب الصغير، ولم يكن شاعرا صغيرا بل كان شاعرا بارعا دخل مصر في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٥-٥٤٤هـ). واستقر بها بمدح من ولى مصر من الخلفاء وحكَمَها من الوزراء، ونحى العماد الأصبهاني السني من أشعاره كل ما يتصل بالتشيع، واهتم بعرض مقدمات أشعاره ومدائحه، وهي تتناول ثلاث شعب عنده: وصف الطبيعة ووصف الخمر والغزل، وأولها أروعها، وهو في شعره يتأثر جده وابن خفاجة شاعر الطبيعة الأندلسي، وكان مثله ينزِع إلى كثرة التصاوير في أشعاره، مما وصل أشعاره بالصور والأخيلة، معبرا بها عن مقدرة شعرية بديعة.

ويليه طلائع بن رُزَيْك وزير الخليفة الفاطمي (٥٤٩-٥٥٥هـ) وكان ممدحا، أكثر الشعراء المصريين من مديحه، وكان شاعرا كبيرا، وتميَّز عهده بكثرة المعارك مع الصليبيين برًّا وبحرا، وكان متشيحا وله رثاء بديع في الحسين بن علي ابن أبي طالب، ويلفتنا عنده أنه كان فارسا شجاعا وأنه خاض بجيوش مصر انتصارات حربية كثيرة مع الصليبيين، وكان يرى أن يظل يهاجمهم من الجنوب في فلسطين بينما يهاجمهم نور الدين من الشمال، وكتب إليه في ذلك قصائد متعددة رائعة، وحظيت مصر في عهده بمجد حربي ضد الصليبيين، وكانت

خيولها ما تزال تصهل في ميادين الحرب برًا بينما تجوب أساطيلها شواطئ فلسطين وتفتك بسفن الصليبيين، وكل ذلك تصوره أشعاره تصويراً دقيقاً.

وَأَتَّبَعْتُهُ بشاعره الجليس بن الحباب، وكان كاتباً بارعاً ولذلك أُسِنِدَتْ إليه رئاسة ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الفائز ووزيره طلائع بن رزّيك، وهو شاعر طلائع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة يشيد بجرويه ومعاركه مع الصليبيين وانتصاراته فيها، وبذلك وصف هذه المعارك وما كان لمصر فيها من أمجاد حرية حقيقية وصفاً بديعاً تُعِينُهُ في ذلك مهارة في نظم الشعر، وهو يسوق فيه كثيراً من الصور والأخيلة التي لا تستر المعاني بل تزيدها بياناً ووضوحاً، وهو إلى ذلك كان يتميّز بما يتميّز به الشعراء المصريون من خفة الروح ونظم رقائق الشعر، مع كثرة ما عنده من الفكاهة والنوادر المستحبة.

والشاعر الرابع: ابن الكيزاني، وهو ليس من شعراء المديح أو الطبيعة أو الخمر، إنما هو من شعراء الحب الرباني، وكان فقيهاً واعظاً عالماً بالعلوم الإسلامية من حديث نبوي وتفسير وبالأصول والفروع، وكان عالماً بالفلسفة ومذاهبها وبالنحل في عصره. واختار لنفسه طريقة سُمِّيَت الكيزانية تبعه فيها كثير من معاصريه، إذ كان يرى أن أفعال العباد قديمة، لأنها تدخل في علم الله بها، وعلم الله قديم. وكان المعتزلة يبرّتون الله من التشبيه بالتنزيه، وهو يشبه الله بالآدميين وينزهه عن التجسيم. وكان له ديوان شعر كبير يتهافت المصريون على اقتنائه، سقط من يد الزمان، غير أن العماد الأصبهاني اطلع عليه وأعجب بروعته، فنقل منه ثلاثمائة بيت، تصور حبة الرباني الصوفي تصويراً دقيقاً، وهي تتدفق بعواطف الغيبة الصوفية الربانية، وهي ليست محبة كمحبة الغزلين الحسية لصواحبهم وشكواهم من الصد والهجر والسقم، فإنه يشتهي دائماً سقمه في حبه ولا يشتكى السهاد بل يؤثره كما يشتهي الهجران والصد، والمحجوب لا يلام بل هو الجدير باللوم. وهو في ذلك يُعَبِّرُ عن حب ربّاني كله مواجداً وتلهّفاً

ولوعة وأهوال ومقامات يندلع شديدها في نفسه أملا في الاتحاد بالحبيب والفتناء فيه. وتتجلى في الأفق حوله صورة حبيبه وسرعان ما تختفى ويهيم بها هيأما يتقلب في نيرانه ظامنا في أشعار تسيل عذوبة، وداؤه دائما الحبيب، وداؤه أيضا الحبيب، ويعيش في الحب الرباني وعذابه.

والموضوع الثاني في الكتاب الفكاهة في الأدب المصري، وفكاهة المصريين قديمة منذ عصر الفراعنة، وتتضح في الصور التي خلّفوها. وظلّت هذه الروح الفكاهة لا تفارقهم في عصر الرومان ونراها ماثلة في الشعر المصري منذ أخذت مصر تتبين شخصيتها في عصر ابن طولون والعصور التالية. ويشتهر في عصره بالروح الفكاهة الشاعر المنبوز بالجمل الأكبر. وفي عصر الإخشيد يشتهر شاعر بلقبه: قاضي البقر. وتظل هذه النزعة بالألقاب الفكاهة في العصر الفاطمي كأن نجد شاعرا يبرز بلقب شلعلع، وشاعرا ثانيا يلقب بالنسناس، وثالثا بلقب ابن مكنسة. وتتضح هذه الروح المصرية الفكاهة في شعر ابن وكيع التتيسي إذ تكثر عنده الدعابة. ويبرز منذ العصر الفاطمي في شعر المصريين ميلهم إلى التلاعب بالألفاظ بقصد المرح، وأخذت تكثر عندهم التوريات بألفاظ لها معنيان: معنى قريب يدل عليه سياقها في الألفاظ السابقة لها، ومعنى بعيد هو المطلوب. وتكثر عند المصريين مع التوريات الأهاجي اللاذعة كما في أهاجيهم للخلفاء الفاطميين وما كانوا يدعونهم من نسبهم إلى الحسين وأمه فاطمة الزهراء. وهم - بجانب ذلك - دعابات كثيرة كوصف البهاء زهير لبغلة أحد أصدقائه بأن خطواتها إذا سارت كان مقدارها أمثلة، ولا تزال تهتر واقفة كأنما هي زلزلة. وتكثر عندهم التوريات كثيرة مفرطة، مما جعلنى أعرض طائفة كثيرة منها منذ أوائل زمن الدولة الفاطمية إلى أواخر عصر المماليك. ونبزوا أميراً باسم حمص أخضر، ومنها الملى ومنها الفارغ فتارة تكون معه نقود كثيرة وتارة يكون خاليا منها، ويقول له شاعر إنك حزت مالا كثيرا وقلوبنا عليك يا حمص أخضر ملانة، فقد

أراد للملانة معناها الفصيح وهو أنها ملانة عتابا لعدم توزيع الأموال على الناس، والتورية واضحة، ومن ذلك قول ابن نباتة الشاعر فى صديق فارق زوجته وكانت تُسمى دنيا إنك "رحت لا دنيا ولا آخره" فقد فقدتهما جميعا. والشعر المصرى - منذ عصر الدولة الفاطمية - يموج بالفكاهة وتمثُلنا بكثير من أبياتها. ومن كبار الفكهين فى الشعراء الجُزَّار، وكان يكثر من إضحاك الناس على معيشته ومسكنه الضيق وملبسه ومطعمه وزوجة أبيه العجوز. ومن الفكهين المضحكين ابن دانيال، وكان كحالاَ حاضرا البديهة، وله أبيات طريفة يقول فيها إن نقوده التى ينفقها على معيشته وحياته يأخذها من أعين الناس. وله مسرحية طريفة كأنما كُتبت فى هذا العصر، جعلها قريبة من العامية المصرية، كتبها فى زمن الظاهر بيبرس أسماها «طيف الخيال»، وتدور حول مشكلة الخاطبة فى العصور الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى العروسين، فالزوج أمير موصلى وهو بائس فقير، والزوجة فتاة مصرية وهى عجوز شطاء قبيحة. وتموج المسرحية بالروح المصرية الهزلية، وهى تبدأ بقرار الظاهر بيبرس بتحريم المنكرات وإغلاق الخمارات، ويرثى طيف الخيال إبليس، فقد مات والخمار محبوس وأوانى الخمر مكسرات، ويستمر فى هذا الهزل الماجن، ويطلب من أمير الموصل المهر فيتباكى ويعلن فى قصيدة طويلة أنه فقير ويصور فقره فى قصيدة تصويرا مضحكا، ويشكو من قبح زوجته شكوى مرة واصفا سُكْرَهُ ومجونه وصفا فكها. وملتقى أخيرا بابن سودون أكبر شعراء مصر الفكهين، وله ديوان جميعه هزل يقوم على مفارقات منطقية مضحكة.

ونلتقى فى هذا القسم بثلاثة كتب فكهة، أولها كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش، وهو كتاب ألفه ابن ممتى صاحب ديوان الجيش والمال فى عهد صلاح الدين الأيوبي، وهو من أسرة قبطية قرَّبَتْها الدولة الفاطمية منها، وعهدت إليها بأعمال فى الدولة ودواوينها منذ جده ممتى. وكانوا يتولون ديوان الإقطاعات

وشتون المال، وكان يتوَّلى هذا الديوان في أواخر عهد الدولة الفاطمية والد مؤلف كتاب الفاشوش، ويسمى المهذب الخطير، ولما تطورت الظروف السياسية، وأصبح أسد الدين شيركوه وزيراً أعلن إسلامه، وأسلمت معه أسرته، وظل يلى ديوان الجيش والمال لأسد الدين شيركوه ثم لصالح الدين، وورث ابنه عنه وظيفته فى الدواوين، فأصبح يلى ديوان الجيش والمال، وكان شاعراً مبدعاً، وكان ظريفاً ويسميه القاضى الفاضل وزير صلاح الدين بلبل المجلس لما كان يطرف به من الفكاهات المستحبة. وكان يعاصره قره قوش التركي أحد قواد صلاح الدين، وكان يعجب به، فجعله كلما تغيب عن القاهرة - فى حروبه للصليبيين - محافظاً لها، وكثيراً ما كان يتغيب عنها شهوراً بل سنين. وفيه أَلَّف ابن ممتى كتابه الفاشوش، ويبدو أنه كان فيه شئ من الغفلة والحلم حين يحكم بين الناس فى قضاياهم، فانتهاز ابن ممتى فيه هذا الجانب وأخذ يكسره فى نواذر، لا تقرؤها فى كتاب الفاشوش حتى نغرب فى الضحك، إذ تنقلب أوضاع المتقاضين عنده، فيصبح الشاكون مشكّوين، والمشكّون شاكين، وكأنما دار الحفاظة أصبحت ملعباً من ملاعب الهزل يذهب المصريون إليه للفرجة والترويح عن النفس بما يرون من أحكام هذا الحاكم من غباء وظلم، لأنه يخالف كل ما تواضع عليه الناس من منطق وفهم. ويتساءل الباحثون لماذا عرض ابن ممتى أحكام قراقوش هذا العرض الهزلى المضحك لأكبر موظفيها وأحكامه؟ ونظن أنه أراد أن يتقم من الدولة الأيوبية الأجنبية التى تسلّطت على مصر وحكمتها دون أبنائها. ونجح ابن ممتى نجاحاً منقطعاً، إذ اتخذت العصور التالية بعده قره قوش مثلاً لكل حاكم ظالم فيه شئ من البله والغفلة.

والكتاب الثانى هو ديوان «نزهة النفوس ومضحك العيوس» لابن سودون فى القرن التاسع الهجرى، بدأ حياته يحفظ القرآن الكريم، وانتظم فى القاهرة بحلقات الشيوخ يحصل عليهم الفقه والعلوم الإسلامية واللغوية، حتى أصبح من

الشيوخ الفقهاء، وعُيِّن إماما بأحد مساجد القاهرة وكانت فيه نزعة متأصلة إلى الفكاهة والهزل، ونظم فيهما باين مهمين من هذا الكتاب، وهو في خمسة أبواب، أولهما في قصائد فصيحة، والثاني في الحكايات وهي قصص عامية قصيرة فكهة، والثالث في الموشحات والرابع في الزجل والمواليا، والباين بعامية قريبة جدا من لغتنا العامية، وهما يدلان على أن مصر لا تتطور عاميتها مع العصور إلا تطورا ضئيلا أو محدودا، والباب الخامس لطرف عجيبة وتحف غريبة من النواذر النثرية المضحكة. ونقف عند البابين الثالث والرابع اللذين جعلهما للشعر العامي الفكاهي، وهو يُعدُّ بهما أهم شخصية مصرية فكهة في العصور الإسلامية السابقة، وقد بنى فكاهاته على المفارقات المنطقية، إذ يقف من مطلع موشحاته وأزجاله موقفا صارما يقول فيه إنه سيذكر عجائب، وما يلبث أن يعرض عليك بدهيات وما يشبه البدهيات، مما يجعلك تشعر في أثناء قراءتك له باختلال توازنك فغرق في الضحك إذ يقدم لك بدهيات على أنها عجائب أو حقائق أولية على أنها غرائب. ومن أطرف أشعاره العامية مرثيته لأمه، ساق فيها تربيتها له في طفولته من دلعا له وشكشكته ياب زجراً وتحتتها له من أبيه حين كان يهرب من الكتاب، وغير ذلك مما عاشه طفلا، وأن عمره أربعاً وأربعين سنة فقط، وفي أثناء مرثيته لها يذكر بعض لغة الأطفال في خطابه لها، والمرثية زاخرة بالفكاهة ومثلها وصفه حفل زفاف، والدنيا من حوله ترقص والطير يشدو على الشجر بهتنة العروسين، ويرى العروس فيصبيه غمٌ شديد لقبحها، وبصوره تصويرا مبالغاً فيه ليضحك سامعيه ويُعجب بقامتتها العوجاء. ويكثر في فكاهاته من تقليد لغة الأطفال وأصوات الحيوانات، وهو دائما يهزل ويتباله هذا البله المضحك. والباب الثاني في الكتاب الذي يعرض فيه ابن سودون بعض القصص يكتظ بالنواذر المضحكة مثل الباب الخامس: باب الطرف العجيبة والتحف الغريبة.

والكتاب الثالث «هز القحوف» ليوסף الشربيني، وكان فقيها فاضلا مثل ابن سودون، وعنى بالفكاهة والهزل، وبهما عرض بؤس الريف المصرى زمن الحكم العثمانى بمصر، فنظم قصيداً سماه أبا شادوف، والشادوف كان آلة يُسقى بها الزرع لعصر الشربيني ورأى أن ينسب القصيد إلى أبى شادوف ليدل على أن القصيد من نظم هذا الشاعر الريفى، ونظمها بلغته العامية وصف فيها حياة الريف وأهله زمن العثمانيين وما كانوا فيه من بؤس وتعاسة شديدة. وكان العلماء اللغويون فى عصره وقبل عصره يختارون بعض القصائد المشهورة ويشرحونها لفائدة الطلبة ومن يعنون بقرائتها ودراستها، فرأى أن يصنع صنيعهم ويشرح قصيد أبى شادوف الذى يصور حياة الفلاح المصرى فى زمن الحكم العثمانى بمصر وما صبوا عليه من الظلم، وهو يسوقها فى صور من اهزل اللادع. ورأى الشربيني أن يشرح القصيدة وبطيل فى وصف تعاسة أهل الريف المصرى حينذاك ويعرضها فى حشد من الهزل والفكاهة تغطيةً لنقده الساخر. ومن طريف تصويره فيه تصويره لأعراس أهل الريف. وتتوالى فى الكتاب صور لبعض معارف الفلاحين تدل على جهل شديد كان يسود حياتهم، فهم فقراء وجهلاء، وكان علماؤهم على شاكلتهم، ويذكر خطبة عامية لأحد وعظاتهم يصور فيها تملقه للكاشف الذى كان يجمع الضرائب من أهل الريف فيقول لسامعيه: "اعلموا أن عندكم قمح كثير وتبن وشعير وأنتم فى خير من رب العالمين"، وهو نفاق واضح، ويتبعه بما يجب عليهم من إتقان الزرع فى الوسيّة (الحقل). ولكى يصور مدى جهل أهل الريف عرض خطابا لفلاح صعيدى أرسل به من القاهرة إلى أبويه فى الصعيد، وهو ملئ بما يُضحك من غفلة وجهل شديد. ويختتم الكتاب بعرض خطبتين لجاهل لم يضمّنهما وعظا كالوعظ المعتاد فى الخطب إنما ضمّنها وصفا للأطعمة التى كان يسيل لها لعاب أهل الريف، ويسمعون عنها وقلما ذاقوها، والشربيني بذلك كله وبكتابه إنما كان يريد أن يبخز العثمانيين فى حكمهم لمصر وخز الإبر.

وهذا الكتاب إنما يدعو الباحثين إلى دراسة الطبقة المصرية التى كوَّنها الأدب العربى، وهى طبقة متميزة بما انطبع فيها من أمزجة المصريين ونفسياتهم. وإن من ينظر فيها يلاحظ أن بعض هذه الطبقة يندمج فى الطبقات العامة للأدب العربى الفصحى وبعضها يستقل عن هذه الطبقات بما اختار له أصحابه من لغة عامية أذاعوه فيها، وهى عامية تُعتبر خليطاً من العربية الفصيحة وبقايا لغتنا القديمة.

وإن من يقرن ما كتبناه فى العربية الفصحى إلى ما كتبناه فى عاميتنا يجد الثانى أكثر صلة بنا فهو يفسر حياتنا من جميع وجوهها السياسية والاجتماعية. فالشاعر الفصحى لا يكون شاعراً إلا إذا خضع للتقاليد ونظم كما ينظم بشَّار وأبو تمام والبحترى والمنتبى، فهذه هى مُثله التى ينظم على أساسها وليس من الضرورى أن يرتبط بمثل حياته إنما هو يرتبط بحياة هؤلاء الشعراء لأنه يريد أن يكون مثلهم وأن يصبح فى عدادهم.

على أن هذا الأدب العامى ليست آثاره شيئاً قليلاً بل إننا حين نعى بدرسها سنجدها أشبه ما تكون بفيضان كبير. وإن جوانب درس هذا الأدب لتتفرع فروعاً كثيرة، إذ ينبغى أن نوجد له «أجروميته» كما ينبغى أن نوجد له معاجمه. وأيضاً ينبغى أن ندرس تاريخه وتطوره وما عمل فيه من عناصر أجنبية أو داخلية، وما نبت منه فى مصر وما جاءها من الخارج وما أقلمته وصبغته بصبغتها الخاصة. وأثناء هذا الدرس ينبغى أن تُبعث نصوصه وأن تُنشر، فإن ذلك كله يأتى بثمار علمية بديعة يفيد منها تاريخنا وأدبنا فائدة محققة. والله أسأل التوفيق والسداد فى الفكر والعمل، وهو حسبى ونعم الوكيل.

القاهرة فى ١ أغسطس ١٩٩٩

شوقى ضيف